جدلية السرد والوصف
في الشعر العربي القديم
قراءة في ديوان الحماسة
لأبي تمام

الأستاذة صباح غرايبية
جامعة منتوري – قسنطينة / الجزائر

إن العلاقة الجدلية بين السرد والوصف ليست وليدة اليوم أو الأمس؛ بل تعود جذورها إلى التقليد القديم الذي نشأ في حضن التأملات الكلاسيكية حول فن الوصف1، وقد اختلف النقاد في تناولهم لعنصر الوصف:

*فمنهم من همّشه وعدّه عنصرا ذيليا، لا يأتي إلا لخدمة السّرد مثل **بروب** الذي اعتبر "الأحداث والأعمال ثوابت ضرورية في كل قصة، أمّا ما يمثّل مدار الوصف من أماكن وأشياء وشخصيات فمن قبيل الزوائد"2 وهو التوجه ذاته الذي اتخذه **لوكاتش** حين رأى "أن السرد هو الأساس في القصة أما الوصف فمجرد وسيلة" 3وبالتالي أفقده جدواه ومعناه.

*ومنهم من عدّه عنصرا مقحما على السرد، أو هو عنصرٌ تابعٌ عَرَضيٌ: وهو ما أكده الناقد **روبرت ليدل** في قوله "إنّ القص التخيّلي هو رسم الشخصية من خلال الفعل، والمناظر الطبيعية في الخلفية لا تتعدى أن تكون عرضية"4 وكأنّه بذلك يفرغ الوصف من مضمونه ودلالته.

وتأتي نظرة جان ريكاردو مغايرة، إذ يعترف بوجود الوصف. ويرى أن طبيعة العلاقة القائمة بين الوصف والسرد هي "نوع من التنازع النصي...يبدأ بهجوم الوصف واحتلاله للنص، يتلوه رد فعل السرد الذي يأخذ في استعادة مواقعه وتأكيد مكانه في الميدان"5.

وبن هذا وذاك هناك من عدّ الوصف أكثر لزوما من السرد لأنه من الممكن أن نصف دون أن نسرد، ومن المتعذر أن نحكي دون أن نصف وكمثال على من دافع عن هذا الموقف نأخذ **هنري جيمس** الذي "عدّ كل سرد وصفا لطبائع الشخصية" 6 فالسرد عنده إذا عبّر عن طبائع الشخصية أو كشف دواخلها ومكنوناتها كان وصفا.

ويذهب **جيرار جينيت** 7 في تحديده للوصف إلى أن هذا الأخير قائم على خاصيتين:

أولاهما: خاصية التحديد الإشاري: إذ يتناول الوصف أشياء أو أشخاصا يتم تأملهم في الفضاء الخاص بهم.

ثانيهما: الخاصية المورفولوجية: حيث تهيمن الأسماء والصفات على الأفعال.

وهما المقياسان اللذان عدّهما **فيليب هامون** سطحيين وساذجين بل اقترح أن نجعلهما "نموذجين بنيويين في تفاعل مستمر، فالسردي موجود في الوصفي وكذلك العكس"8 ونوافقه الرأي والتصور ذلك أن

درجة التآلف بينهما والتمازج بلغ الحدّ الذي يشكل صعوبة في التمييز بين حدودهما تطبيقيا وعمليا (غالبا) وإن بدت الفروق بينهما واضحة على المستوى التنظيري "إذ لا تخلو النصوص القصصية من وصف، سواء بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة"9 وعليه فلا يمكن الفصل بين المقاطع الوصفية والسّرد، لارتباطهما المتماسك ببقية العناصر"10بل إننا لا نغادر الحق إن قلنا إن النصوص الناجحة هي تلك التي تغيب فيها الحدود والفواصل فيمتزج السرد بالوصف لينتجا نصّا سرديا.

وقد شكّل وصف المرأة أحد أبرز الموضوعات التي جاءت في قالب الوصف المتداخل مع السرد، ويلجأ الشاعر إلى هذا النمط من التصوير ليبرز علاقته بتلك المرأة أو عاطفته اتجاهها، ويتجلى ذلك من خلال إبرازه لنوع معين من الصفات.

فإن كان محبا لها: بدت مفاتنها وجمالها.

وإن كان لها مبغضا: بدت قبيحة في خلقها وخِلقتها.

ذلك لأن الشاعر إنما يأخذ من روحه وعاطفته وأحاسيسه ما يُلوّن به هيئات الموصوف.

أ-في وصف محاسنها وجمالها:

وردت أكثر نماذج هذا الاتجاه في باب النسيب وباب الصفات، والملاحظ أن الشعراء يسلكون طريقا واحدا قوامه:

أولا/**اندماج السرد بالوصف**: ويتجلى ذلك في تظافر الأفعال والأسماء والنعوت في الدلالة على هيئات الموصوف (المرأة) وهو أمر واضح في كل الحماسيات.

ثانيا /**التعدد**: إذ يحاول الشعراء الإلمام بأوجه جمالها ومظاهر حسنها من خلال تتبع صفاتها الجسمية على وجه الخصوص ومن ذلك:

1-بياض الوجه وسواد الشعر والعيون:

بيضاءُ آنسة الحديثِ كأنّها قمرٌ توسَّطَ جُنْحَ ليل مبردِ11

تـأمـلـتها مغترةً فكأنما رأيتُ بها من سنة البدر مطلعا 1

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جثل أسحم

وكـأنـهـا فيه نهار ساطع و كـأنـه ليل عليها مظلم 13

وترى مدامعها ترقرقُ مقلةً سوداءَ تَرْغَبُ عن سوادِ الإثمد14

إذ يحرص الشعراء على بيان اللون ؛ بياض في البشرة وسواد في الشعر والعيون، ولعلّ ما يساهم في تجسيد هذه الصورة عقد التشبيه بين طرفين أولهما المرأة وثانيهما الليل أو القمر.

بياض الوجه.....كالقمر
سواد الشعر.....كالليل
سواد العيون.....الأثمد (الكحل)

2-امتلاء الجسم وضمور الخصر:

أَبتِ الرَّوادِفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِها مسَّ البطون، وأنْ تمسّ ظهورا
وإذا الرياحُ معَ العشيّ تناوحتْ نَبَّهْنَ حَاسِدَةً، وَهِجْنَ غيورا 15
تَسَاهَمَ ثَوْباها ففي الدِّرْعِ رَأْدةٌ وفي المِرْطِ لَفّاوانِ رِدْفُهما عَبْل 16
عُقَيلِيَّةٌ أمّا مُلاثُ إزارِها فَدَعصٌ وَأمّا خَصرُها فَبَتيلُ17

ونوضح أن صورة المرأة الجميلة التي تنبه الحاسدة وتهيّج الغيور، مشتركة عند الشعراء وهي امتلاء الجسم في غير سمنة مفرطة، وضمور الخصر، هذا الامتلاء أحيانا يجعلها تبدو كالمريضة لبطء حركتها:

ومن ذلك قول الشاعر

مريضات أوبات التهادي كأنما تخاف على أحشائها أن تقطّعا
تسيب انسياب الأيم أحصره الندى فرفع من أعطافه ما ترفعا18

3-الحسن والجمال:

مَوسومَةٌ بِالحُسنِ ذاتُ حَواسِدٍ إنَّ الحِسانَ مَظِنَّةٌ لِلحُسَّدِ 19
فَوَ اللهِ ما أَدْري أَزِيدَتْ مَلاحَةً وَحُسْناً على النسْوانِ أم لَيْسَ لي عَقْلُ 20

-الصفات المعنوية: الدّعة والدلال.

ب-في وصف قبحها وسوء خلقها:

وقد وردت نماذج هذا الوصف في أبواب: الهجاء، والملح، ومذمة النساء، وفيها يعكس الشاعر بغضه لامرأة معينة، لقبحها وبشاعتها شكلا ومضمونا، ويسعى إلى بيان أوجه قبحها وتعدادها، ليجد لنفسه مبررا لهجرها أو لذمها، وقد اشتركت النماذج المتوصل إليها في جملة من النقاط لعلّ أهمها:

أولا/امتزاج السرد بالوصف

ثانيا/التعددية:

إذ يحاول الشعراء تقصي عيوبها وتتبع مساوئها وعرضها وكأنهم بذلك يحاولون نفي أي احتمال لوجد ما يقرب منها أو يحبب فيها، لأنها عندهم خِلو من أي حُسن:

تمت عبيدة إلا من محاسنها والملح منها بحيث الشمس والقمر 21

فالحسن بعيدة عن عبيدة هذه تماما كبعد الشمس عن القمر.

ويلجأ الشعراء إلى ذكر تفاصيل ذمامة هذه المرأة بالتركيز على أعضاء من جسدها:

1-قبح الوجه وذمامته:

لأسماء وجهٌ بدعةٌ من سماجةٍ .....

بدا فبدت لي شقة من جهنم فقمت ومالي بالجحيم يدان 22 لَـهَـا
وَجْهُ قِرْدٍ إذا ازَّيَّنَتْ وَلَـوْنٌ كَبَيْضِ الْقَطَا الْأَبْرَشِ23
كـأن الـثآليلُ في وجهها إذا أسفرت بددَ القشمش 24
ألام علـى بغضي لما بين حية وضبع وتمساح تغشاك من بتحاكي
نعيما زال في قبح وجهها وصفحتها لما بدت سطوة الدهر
إذا سفرت كانت لعينك سخنة وإن برقعت فالفقر في غاية الفقر25

والواضـح أن الشـعراء كـانوا يتلمسـون أي صـورة، تمكـنهم مـن التعبير عن شدة نفورهم من هذه المرأة التي ابتلوا بها، ولذلك ركزوا على تشبيه وجهها بكل ما ينفر النفوس.

فهو تارة يشبه جهنم، وتارة يشبه القرد (وهو الصورة التي تبدو عليها المرأة بعد تزينها، فما بالك بما كنت عليه قبل ذلك)، بل قرد وفي وجهه بثور وثآليل.

وأحيانا يحتار الشاعر في وصفها، وبأي حيوان يشبهها فيجعلها مزيجا من متعدد فوجهها يشبه الحية والتمساح والضبع، فويل له إذا رآها مسفرة وله الويل إذا تخفت وتسترت.

2-سعة الفم وكثرة الأسنان:

لَـهَـا فَمٌ مُلْتَقَى شِدْقَيْهِ نُقْرَتُهَا كَأَنَّ مِشْفَرَهَا قَدْ طُرَّ مِنْ فِيلِ
أَسْنانُها أُضْعِفَتْ في حَلْقِها عَدَداً مُظاهَرات جميعاً بالرَّواويل 26
ألمـم بـوطباء في أشداقها سعة في صورة الكلب إلا أنها بشر 27

3-النحافة:

أعـوذُ بـاللهِ من ليلٍ يقرِّبني إلى مـضـاجعةٍ كالد لكِ بالمَسَدِ
لقد لَمَسْتُ معراها فما وقعتْ مما لمستُ يدي إلى على وتدِ في كُلِّ
عضوٍ لها قرنٌ تصكُّ به جَنْبَ الضجيعِ فيُضْحي واهيَ الجسدِ 28

مني الشاعر بامرأة نغصت عليه حياته، فأصبح يكره قدوم الليل الذي يقربه منها ويسكنه إليها، كيف لا وهي نحيفة إلى درجة أن كل عضو من جسمها يشبه قرون الحيوان التي يصك بها، ولا تقع يده منها على رطب ولا لين، وإذا كان هذا الشاعر قد شبه نحافتها بالقرون فهناك من شبهها بالعصا قائلا:

مُنِيتُ بِزِنمَّرْدَةٍ كالعَصا أَلَصَّ وأَخْبَثَ من كُنْدُشِ29

فهي إلى جانب شدة نحافتها التي جعلتها تبدو كالعصا، خبيثة وسيئة الطباع.

4-سوء الحديث:

وإن حدثتْ كانتْ جميعَ مصائب موفرةٍ تـأتي بقاصمةِ الظَّهْرِ
حَديثٌ كَقَلْعِ الضِّرْسِ أو نتفِ شاربٍ وغنجٌ تحطمِ الأنف عيلَ بهِ صبري30

فلم يكف الشاعر أنه ابتلي بسوء مظهرها، بل زاده على ذلك سوء حديثها وقبحه الذي يقع على مسامعه أشد من مصائب الدهر مجتمعة، فقلع الضرس أو نتف شاربه أهون عنده من سماع حديثها فما بالنا به وهي تحاول التدلل عليه؟!!

5-قصر القامة واعوجاج الظهر:

حدباء وقصاء صيغت صيغة عجبا
وفي ترائبها عن صدرها زور31
قامة القُصْعُلِ الضعيفِ، وكَفٌّ
خِنْصَراها كُذَيْنِقا قَصَّار32

6-سوء الخلق:

(فهي خبيثة وطائشة...)

تُحِبُ النساءَ وتأبى الرجال
وتمشى مع الأخْبَثِ الأَطْيَشِ
مُنِيتُ بِزِنمَّرْدَةٍ كالعَصا
أَلَصَّ وأَخْبَثَ من كُنْدُشِ33

ثالثا-الحرص على بيان معاناة الشاعر معها:

يحرص الشعراء على بيان حالهم ومعاناتهم في حياتهم معها فواحد قد طال ليله وبات يناجي طلوع النهار.

طال ليلي بها فبت أنادي ... يالثارات مستضاء النهار34

وآخرهم لم يجد حلا سوى أن يتمنى لو أن باستطاعتها تغيير خلقتها:

لو تأتى لك التحول حتى تجعلي خلفك اللطيف أماما
ويكون القدام ذو الخلقة الجز لة خلقاً مركّناً مستكاما
لإذاً كنت يا عبيدة خير النا س خلفاً وخيرهم قدّاما35

4-في معرض وصفهم للمرأة وسردهم لمعاناتهم معها، قد يذكر بعضهم اسم المرأة سبب عذابه: جوهر، عبيدة، أسماء... وقد يكتفي البعض بالكناية عنها وتشبيهها مباشرة بالحيوان....

وعموما يمكننا تلمس ملامح السرد والوصف وبيان تداخلهما من خلال اعتمادنا على بعض السمات الدالة على كل صنف:

السرد Narration	الوصف Description
1-يعنى بالأفعال والأحداث المتعاقبة	1-يعنى بالشخصيات والفضاءات المكانية -يهتم بهيئة الفعل أكثر من زمانه -صيغة الفعل المضارع (يفعل) أكثر شيوعا من الفعل الماضي
2-يكون عادة في جمل فعلية مادتها إيراد الأفعال لأن الأفعال تدل على الحركة والاستمرار	2-يكون غالبا في جمل اسمية مدارها إسناد الصفات إلى الموصوفات أو تراكيب نحوية خاصة كالنعت والحال...
3-السرد ضرب من التوسع العمودي	3-الوصف ضرب من التوسع الأفقي
4-السرد أكثر حيوية	4-الوصف أكثر تأملية

وعليه يمكننا القول بأن واقع النصوص يبين أن لا غنى لأحدهما عن الآخر لأن القصة
لا تكتمل إلا بالوصف والسرد.

الهوامش والإحالات

تم الاعتماد على ديوان الحماسة المنسوب لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ،برواية منصور بن أحمد بن محمدبن الخضر الجواليقي،شرح وتعليق :أحمد حسن بسج .دار الكتب العلمية. بيروت .لبنان. ط1.1998

1 -"فرّق أصحاب الخطاب البلاغي المعياري بين الوصف كوسيلة أو وحدة نصية تخدم الحبكة، والوصف كغاية في حدّ ذاته؛ وهذا الأخير من شأنه أن يعرض الوحدة الشاملة للعمل للخطر وتشوش بالتالي على جدوى العرض الوصفي" للاستزادة أنظر: حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي؛ الفضاء – الزمن- الشخصية .المركز الثقافي العربي.الدار البيضاء .المغرب .ط1 2009: ص 175.

2 - سيزا القاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنةفي ثلاثية نجيب محفوظ . دار التنوير .بيروت لبنان .ط1 .1985، ص 112 / وانظر: بنية الشكل الروائي، ص .178

3 - هيفاء الفريج: تقنيات الوصف في القصة القصيرة السعودية .المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء .المغرب .ط1 .2009 . ص 320.

4 - سيزا القاسم: بناء الرواية، ص .112

5 - حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص .78

6 - نفسه، ص .218

7 - جيرار جينيت: خطاب الحكاية ، بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم، ط3، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص 112وما بعدها (بتصرف).

8 - هيفاء الفريج: تقنيات الوصف، ص .318

9 - نفسه، ص .320

10 - الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي،عالم الكتب الحديث . الأردن .ط1 . 2010 ص .178

11- الحماسة: 561، ديوان الحماسة :ص 265.

12- الحماسة: 498، ص 245، مغترة: أي على حين غفلة.

13- الحماسة: 497، ص 244: الجثل من الشعر والشجر الكثيف الملتف / الأسحم: الأسود.

14- الحماسة: 561، ص 266: ترقرق الدمع: يذهب الدمع ويجيء / الإثمد: حجر الكحل.

15 - الحماسة: 496، ص 244، القمص: (ج) القميص وهو درع المرأة / تناوحت: تقابلت.

16- الحماسة: 527، ص 254، تساهم: تشارك وتقاسم / الدرع: القميص / رأدة: الشابة الحسنة الثوب / لفاوان: فخذان ضخمتان / الردف: الكفل / المؤخر العبل: الضخم

17- الحماسة: 536، ص ، عقيلية: أي من عقيل / ملاث إزارها: أي ما يدار عليه الإزار؛ يعين العجز / وشبهه بالدعص أي الرمل الكيثف / البتلى: الرقيق.

18 _ الحماسة: 495، ص 244.

19 - الحماسة: 561، ص 265، موسومة: ذات وسم أي علامة.

20 - الحماسة: 527، ص 254، ملاحة: جمالا.

21- الحماسة: 882، ص 397، عبيدة: اسم امرأة.

22- الحماسة: 885، ص 399، أسماء: اسم امرأة / قوله بدا: يعني وجهها.

23- الحماسة: 893، ص 401، القطاة: طر / ثآليل: (ج) ثؤلول / سفرت: كشفت وجهها / بدد: ج بدة: قطعة متفرقة / الكشمش: عنب صغار لا عجم فيهم، وفي هذه الحماسة أيضا (وصف للفخذين والساقين...).

24/ أنظر الحماسة: 869 (القبح)، 876 (القبح).

25- الحماسة: 888، ص ص 399-400، وفي بيت آخر يشبهها بالضربات، وبالمرض والعلة (البيت 03).

26- الحماسة: 886، ص 399، النقرة: مكان في القفا / الرواويل: أسنان زوائد تكون خلف الأسنان.

27- الحماسة: 881، ص 397، الوطباء: عظيمة الثديين.

28- الحماسة: 845، ص 385، الدلك: المرس والدعك / المسد: الحبل / الوتد: ما برز في أرض من خشب وشبهها لهزالها بالوتد.

29- الحماسة: 893، ص 401، زنمردة: معرب بمعنى الصغيرة الجسم / الكندش: العقعق.

30 -الحماسة: 888، ص 400، قاصمة الظهر: الداهية / قصم: كسر / عيل صبري: أي غلب / الحطم: الكسر.

31- الحماسة: 881، ص 397، الوقصاء: قصيرة العنق / الترائب: ج التريبة وهي موضع القلادة / لزّور: الصيل، وانظر الحماسة: 886 (ب1).

32_ الحماسة: 887، ص 399، القصعل: العقرب أو ولدها / كذينقا قصار: مثنى كذينق وهو المدقة (معرّب).

33- الحماسة: 893، ص 401.

34- الحماسة: 887، ص 399.

35 -الحماسة:92 8 ، ص 401، أراد بالخلف العجيزة وهي قليلة اللحم / الجبلة: الغليظة / المركن: الذي له أركان / المستكام: من الكوم وهو الجماع.